سورة فصلت

١ـ **تسمى (حم السجدة)** بإضافة (حم) إلى (السجدة) كما قدمناه في أول سورة المؤمن، وبذلك تُرجمت في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي؛ لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف (حم) بأن فيها سجدةً من سجود القرآن.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن خليل بن مرة[1]: «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: تبارك، وحم السجدة»[2].

وسميت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير (سورة السجدة) وهو اختصار قولهم (حم السجدة) وليس تمييزاً لها بذات السجدة.

وسميت هذه السورة في كثير من التفاسير (سورة فصلت).

واشتهرت تسميتها في تونس والمغرب (سورة فصلت) لوقوع كلمة: ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ في أولها فعُرِّفت؛ بها تمييزاً لها من السور المفتتحة بحروف (حم).

كما تميزت (سورة المؤمن) باسم (سورة غافر) عن بقية السور المفتتحة بحروف (حم).

وقال الكواشي: وتسمى (سورة المصابيح) لقوله ـتعالىـ فيها: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا

١ـ هو خليل بن مرة الضُبَعي (بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة) البصري الرقي، روى عن عطاء وقتادة، وروى عنه الليث، وابن وهب، وأحمد بن حنبل، قال البخاري: هو منكر الحديث توفي سنة ستين ومائة.

٢ـ المعروف هو حديث الترمذي عن جابر «كان رسول الله لا ينام حتى يقرأ: آلم تنزيل، وتبارك الذي بيده الملك». ولا منافاة بين الحديثين.

السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وتسمى (سورة الأقوات) لقوله ـتعالىـ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

وقال الكواشي في التبصرة: تسمى (سجدة المؤمن) ووجه هذه التسمية قصد تمييزها عن سورة (الم السجدة) المسماة (سورة المضاجع) فأضافوا هذه إلى السورة التي قبلها وهي (سورة المؤمن) كما ميزوا (سورة المضاجع) باسم (سجدة لقمان) لأنها واقعة بعد (سورة لقمان).

وهي مكية بالاتفاق نزلت بعد (سورة غافر) وقبل (سورة الزخرف) وعدت الحادية والستين في ترتيب نزول السور.

وعدت آيها عند أهل المدينة وأهل مكة ثلاثاً وخمسين، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين، وعند أهل الكوفة أربعاً وخمسين. ٢٤/٢٢٧ـ٢٢٨

٢ـ أغراضُها: التنويهُ بالقرآنِ، والإشارةُ إلى عَجْزِهم عن معارضته.

وذكرُ هَدْيِهِ، وأنه معصومٌ من أن يتطرقه الباطل، وتأييدهُ بما أُنْزِل إلى الرسل من قبل الإسلام.

وتَلقِّي المشركين له بالإعراض وصمِّ الآذان.

وإبطالُ مطاعنِ المشركين فيه، وتذكيرُهم بأن القرآنَ نزل بِلُغَتِهم؛ فلا عذر لهم أصلاً في عدم انتفاعهم بهديه.

وَزجْرُ المشركين، وتوبيخُهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية.

وإنذارُهم بما حلَّ بالأمم المكذبةِ من عذاب الدنيا.

ووعيدُهم بعذاب الآخرة، وشهادةُ سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم.

وتحذيرُهم من القرناء المُزَيِّنين لهم الكُفْرَ من الشياطين والناس، وأنهم سيندمون يومَ القيامة على اتباعهم في الدنيا.

وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله.

وأمرُ النبيِّ ﷺ بدفعهم بالتي هي أحسن، وبالصبر على جفوتهم، وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

وذُكِرَتْ دلائلُ تفردِ الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر.

ودلائلُ إمكانِ البعث؛ وأنه واقع لا محالة، ولا يعلم وقته إلا الله -تعالى-.

وتثبيتُ النبيِّ ﷺ والمؤمنين بتأييد الله إياهم بتنزل الملائكة بالوحي، وبالبشارة للمؤمنين.

وتخلل ذلك أمثالٌ مختلفةٌ في ابتداء خلق العوالم، وعِبَرٌ في تقلبات أهل الشرك، والتنويه بإيتاء الزكاة. ٢٤/٢٢٨-٢٢٩

٣- **والخوف:** غم في النفس ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد.

والحزَن: غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع، أو حصول ضر. ٢٤/٢٨٥

٤- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾.

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بينوا السنن، ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله -تعالى- من دينه ومن خَلْقه. ٢٤/٢٨٩

٥- و﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: هي الحسنة، وإنما صيغت بصيغة التفضيل ترغيباً

في دفع السيئة بها؛ لأن ذلك يشق على النفس؛ فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس، وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء، فلما أُمر الرسولﷺ بأن يجازي السيئة بالحسنة أشير إلى فضل ذلك.

وقد ورد في صفة رسول اللهﷺ: «ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

وقد قيل: إن ذلك وصفه في التوراة.

وفرع على هذا الأمر قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح؛ ترويضاً على التخلق بذلك الخُلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدراً للإحسان.

ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مثارها، وأَمَرَ اللهُ رسولَهﷺ بالدفع بالتي هي أحسن ـ أردفه بذكر بعض محاسنه، وهو أن يصير العدو كالصديق، وحُسنُ ذلك ظاهرٌ مقبول؛ فلا جرم أن يدل حُسنه على حسن سببه.

ولذكر المُثُل والنتائجِ عَقِبَ الإرشادِ شأنٌ ظاهرٌ في تقرير الحقائق، وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس؛ لأنها شاقة عليها، والعداوة مكروهة، والصداقة والولاية مرغوبة؛ فلما كان الإحسان لمن أساء يدنيه من الصداقة، أو يُكسبه إياها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

و(إذا) للمفاجأة، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقاً.

وعدل ذكر العدو معرفاً بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية، وهو أصل التنكير، فيصدُقُ بالعداوة القوية ودونها، كما أن

ظرف (بينك وبينه) يصدُق بالبين القريب والبين البعيد، أعني ملازمةَ العداوةِ، أو طُرُوَّها.

وهذا تركيب من أعلى طَرَف البلاغة؛ لأنه يجمع أحوال العداوات، فيعلم أن الإحسان ناجح في اقتلاع عداوة المحسَن إليه للمُحْسِنِ على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفاً، وتمكناً وبعداً، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قوياً بقدر تمكن عداوته؛ ليكون أنجع في اقتلاعها.

ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حبٍّ من أحسن إليها.

والتشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيه في زوال العداوة، ومخالطة شوائب المحبة؛ فوجه الشبه هو المصافاةُ والمقاربةُ وهو معنى متفاوت الأحوال، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإحسان، وتفاوت قوة العداوة قبل الإحسان، ولا يبلغ مبلغ المشبَّه به؛ إذ من النادر أن يصير العدو ولياً حميماً، فإن صاره فهو لعوارضَ غيرِ داخلةٍ تحت معنى الإسراع الذي آذنت به (إذا) الفجائية. ٢٤/٢٩٢-٢٩٣

٦- ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾.

وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوة عزم، وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنها تلازمها خصلةُ الصبر وهي في ذاتها خصلةٌ حميدة، وثوابها جزيل -كما علم من عدة آيات في القرآن- وحسبك قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فالصابر مرتاض بتحميل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ؛ فيهون عليه ترك الانتقام. ٢٤/٢٩٤ـ٢٩٥

٧ـ ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾.

عطفٌ على جملة: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ فبعد أن أُرشد إلى ما هو عونٌ على تحصيل هذا الخلقِ المأمورِ به ـ وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن ـ وبعد أن شُرِحَتْ فائدةُ العمل بها بقوله: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ صُرِف العِنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأُمر بأنه إن وجد في نفسه خواطر تَصْرِفه عن ذلك، وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها؛ فإن ذلك نزغٌ من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه؛ فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذ؛ لأنه أمره بذلك، والخطاب للنبيﷺ.

وفائدة هذه الاستعاذة تجديدُ داعيةِ العصمة المركوزة في نفس النبيﷺ لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للعصمة وصقل لزكاء النفس مما قد يقترب منها من الكدرات.

وهذا سرٌّ من الاتصال بين النبيﷺ وربه وقد أشار إليه قول النبيﷺ: «**إنه لَيُغانَ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[1].

فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شيءٌ من الكُدُرات، ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين. ٢٤/٢٩٦

٨ـ **والمعنى**: فإن سوّل لك الشيطان أن لا تعامل أعداءك بالحسنة، وزيَّن لك

١ـ رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

الانتقام، وقال لك: كيف تحسن إلى أعداء الدين، وفي الانتقام منهم قطع كيدهم للدين؟ فلا تأخذ بنزغه، وخذْ بما أمرناكَ واستعذ بالله من أن يزلّك الشيطان؛ فإن الله لا يخفى عليه أمر أعدائك، وهو يتولى جزاءهم. ٢٩٨/٢٤

٩- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب؛ إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له، ولدينه، وذلك بما يسَّر الله لرسوله ﷺ ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامة، وفي باحة العرب خاصة من الفتوح، وثباتها، وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمثالُها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض.

والتاريخُ شاهدٌ بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمرٌ خارقٌ للعادة؛ فيتبين أن دين الإسلام هو الحق، وأن المسلمين كلما تمسكوا بعرى الإسلام لقوا من نصر الله أمراً عجيباً يشهد بذلك السابق واللاحق، وقد تحداهم الله بذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

ولم يقفْ ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة، فَتَقَلَّدوه ديناً، وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم، فأصلحت عوائدهم ونظمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها،

فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة، وأوجدوا حضارةً جديدةً سالمة من الرعونة، وتفشت لغةَ القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن، وتعارفت بواسطتها.

ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدين، وعلماء العربية، وأئمة الأدب العربي، وفحول الشعراء، ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم. ٢٥/١٨ـ١٩

سورة الشورى

١ ـ **اشتهرت تسميتها** عند السلف (حم عسق) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير، والترمذي في جامعه، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير وكثير من المصاحف.

وتسمى (سورة الشورى) بالألف واللام كما قالوا: (سورة المؤمن).

وبذلك سميت في كثير من المصاحف والتفاسير، وربما قالوا: (سورة شورى) بدون ألف ولام؛ حكايةً للفظ القرآن.

وتسمى سورة عسق بدون لفظ (حم) لقصد الاختصار.

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر، ولم يثبت عن النبيﷺ شيء في تسميتها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعدها في الإتقان في عداد السور المكية، وقد سبقه إلى ذلك الحسن بن الحصار في كتابه في الناسخ والمنسوخ ـكما عزاه إليه في الإتقانـ.

وعن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلى آخر الأربع الآيات.

وعن مقاتل استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ رؤي أنها نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات الأربع التي ذكرها ابن عباس.

وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل: أن قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ

الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآيةَ، نزل في أهل الصفة فتكون مدنية، وفيه عنه أن قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ نزل بالمدينة.

نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم وعدت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري المروي عن جابر بن زيد.

وإذا صحَّ أن آية: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ نزلت في انحباس المطر عن أهل مكة -كما قال مقاتل- تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعل نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة، فقد قيل: إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أريد به الأنصار قبل هجرة النبيﷺ إلى المدينة.

وعدت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة خمسين، وعند أهل الكوفة ثلاثاً وخمسين. ٢٥/٢٣-٢٤

٢- **أغراضُ هذه السورة**: أولُ أغراضِها الإشارةُ إلى تحدي الطاعنين في أن القرآن وحيٌ مِنَ اللهِ بأن يأتوا بكلام مثله؛ فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة -كما تقدم في سورة البقرة-.

واستدل اللهُ على المعاندين بأن الوحي إلى محمدﷺ ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله؛ لِيُنْذِرَ أهلَ مكةَ ومَنْ حولَها بيوم الحساب.

وأن الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تُعارَضُ قدرتُه، ولا يُشَكُّ في حكمته، وقد خَضَعَتْ له العوالمُ العليا ومَنْ فيها، وهو فاطرُ المخلوقات؛ فهو يجتبي منْ يشاء لرسالته؛ فلا بِدْعَ أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مِثْلَ ما شرع

لمن قبله من الرسل، وما أرسل اللهُ الرسلَ إلا مِنَ البشرِ يوحي إليهم؛ فلم يَسْبِقْ أَنْ أرسل ملائكةً لمخاطبة عمومِ الناس مباشرةً.

وأن المشركين بالله لا حجة لهم إلا تقليدُ أئمةِ الكفر الذين شرعوا لهم الإشراكَ، وألقوا إليهم الشبهات.

وحذَّرهم يومَ الجزاء، واقترابَ الساعة، وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماجِ التعريضِ بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة، وأنهم لو تَدَّبروا لعلموا أن النبيَّ ﷺ لا يأتي عن الله مِنْ تلقاء نفسه؛ لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله.

وذُكِرَتْ دلائلُ الوحدانيةِ، وما هو من تلك الآيات؛ نعمةً على الناس مثل دليل السيرِ في البحر، وما أوتيه الناسُ مِنْ نِعَمِ الدنيا.

وتسليةُ الرسولِ ﷺ بأن الله هو مُتَولي جزاءِ المكذبين وما على الرسول ﷺ من حسابهم من شيء؛ فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم.

ونَبَّههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاءً على نصحه لهم، وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم.

وذكَّرهم نِعَمَ اللهِ عليهم، وحذَّرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرَّضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة، والمبادرةِ إلى ذلك قبل الفوات؛ فقد فاز المؤمنون المتوكلون، ونوَّه بجلائل أعمالهم، وتَجَنُّبِهم التعرضَ لغضب الله عليهم.

وتخلل ذلك تنبيهٌ على آياتٍ كثيرةٍ من آيات انفراده -تعالى- بالخلق والتصرف المقتضي إنفرادَهُ بالإلهية؛ إبطالاً للشرك.

وخَتَمَها بتجَدُّد المُعجزة الأميةِ بأن الرسولﷺ جاءهم بهدىً عظيمٍ من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره، وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد أوحي إليه به؛ فعليهم أن يهتدوا بهديه؛ فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله.

وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله، وانتظار حُكْمِهِ وهي كلمةُ ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾. ٢٥/٢٤_٢٥

٣_ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾ خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وموقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل؛ فإنه لما قدم ما هو نعم عظيمة تبين أن الله لا يماثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه.

ومعنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ليس مثله شيء، فأقحمت كاف التشبيه على (مثل) وهي بمعناه؛ لأن معنى المثل هو الشبيه؛ فتعين أن الكاف مفيدة تأكيداً لمعنى المثل، وهو من التأكيد اللفظي باللفظ المرادف من غير جنسه، وحُسْنُه أنَّ المؤكد اسمٌ فأشبه مدخول كاف التشبيه المخالف لمعنى الكاف؛ فلم يكن فيه الثقل الذي في قول خطام المجاشعي:

وصاليات ككما يؤثفين[1]

وإذ قد كان المثل واقعاً في حيز النفي فالكاف تأكيد لنفيه؛ فكأنه نفيُ المثلِ عنه _تعالى_ بجملتين؛ تعليماً للمسلمين كيف يبطلون مماثلة الأصنام لله _تعالى_.

١_ رجز وقبله:

لم يبق من آي بها تحيين غير حطام ورمادي كفتين

وهذا الوجه هو رأي ثعلب، وابن جني، والزجاج، والراغب، وأبي البقاء، وابن عطية.

وجعله في الكشاف وجهاً ثانياً، وقدم قبله أن تكون الكاف غير مزيدة، وأن التقدير: ليس شبيه مثله شيء.

والمراد: ليس شبه ذاته شيء، فأثبت لذاته مثلاً، ثم نفى عن ذلك المثل أن يكون له مماثل كناية عن نفي المماثل لذات الله -تعالى- أي بطريق لازم اللازم؛ لأنه إذا نُفِي المثل عن مثله فقد انتفى المثل عنه؛ إذ لو كان له مثل لما استقام قولك: ليس شيء مثل مثله، وجعله من باب قول العرب: فلان قد أيفعت لِدَاتُه، أي أيفع هو فَكُنِّي بإيفاع لداته عن إيفاعه.

وقول رقيقة بنت صيفي[1] في حديث سقيا عبدالمطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته» اهـ، أي ويكون معهم الطيب الطاهر يعني النبي ﷺ.

وتبعه على ذلك ابن المنير في الانتصاف، وبعض العلماء يقول: هو كقولك ليس لأخي زيد أخ، تريد نفي أن يكون لزيد أخ؛ لأنه لو كان لزيد أخ لكان زيد أخاً لأخيه؛ فلما نفيت أن يكون لأخيه أخ فقد نفيت أن يكون لزيد أخ.

ولا ينبغي التعويل على هذا؛ لما في ذلك من التكلف والإبهام، وكلاهما مما ينبو عنه المقام.

وقد شمل نفي المماثلة إبطال ما نسبوا لله البنات، وهو مناسبة وقوعه عقب قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ الآية. ٢٥/٤٥-٤٧

٤- وقوله: ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ ظرف مستقر هو صفة لـ﴿ شُورَى ﴾.

١- هي رقيقة بقافين بصيغة التصغير بنت صيفي (والصواب أبي صيفي) بن هشام بن عبدالمطلب.

والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل الرأي، فلا يدخل فيها من لا يهمه الأمر، وإلى أنها سر بين المتشاورين قال بشار:

ولا تشهد الشورى أمراً غير كاتم

وقد كان شيخ الإسلام محمود بن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا الإيماء إشارة بيده حين تلا هذه الآية، ولا أدري أذلك استظهار منه أم شيء تلقاه من بعض الكتب، أو بعض أساتذته، وكلا الأمرين ليس ببعيد عن مثله. ٢٥/١١٢-١١٣

سورة الزخرف

١ـ **سميت في المصاحف العتيقة والحديثة (سورة الزخرف)** وكذلك وجدتها في جوء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس.

وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وسميت كذلك في كتب التفسير.

وسماها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (سورة حم الزخرف) بإضافة كلمة حم إلى الزخرف ـعلى نحو ما بيناه في تسمية سورة (حم المؤمن)ـ روى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك.

ووجه التسمية أن كلمة ﴿وَزُخْرُفاً﴾ وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن فعرفوها بهذه الكلمة.

وهي مكية: وحكى ابن عطية الاتفاق على أنها مكية، وأما ما روى عن قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن آية ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ نزلت بالمسجد الأقصى فإذا صح لم يكن منافياً لهذا لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة.

وهي معدودة السورة الثانية والستين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان.

وعدت آيها عند العادين من معظم الأمصار تسعاً وثمانين، وعدها أهل الشام ثمانياً وثمانين. ١٥٧/٢٥

٢ـ **أغراضها**: أعظمُ ما اشتملت عليه هذه السورةُ من الأغراض: التحديْ

بإعجازِ القرآن؛ لأنه آيةُ صدقِ الرسولﷺ فيما جاء به، والتنويهُ بهِ بِعِدةَ مرات، وأنه أوحى الله به؛ لتذكيرهم، وتكريرِ تذكيرِهم وإن أعرضوا كما أعرض مَنْ قَبْلَهُمْ عن رسلهم.

وإذ قد كان باعثُهم على الطعنِ في القرآن تَعَلُّقَهُمْ بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها ـ كان من أهمِّ أغراضِ السورةِ التعجيبُ من حالهم؛ إذ جمعوا بين الاعتراف بأن اللهَ خالقُهم والمنعمُ عليهم وخالقُ المخلوقات كلِّها وبين اتخاذِهم آلهةً يعبدونها شركاءَ لله، حتى إذا انتقض أساسُ عنادِهم اتضح لهم ولغيرهم باطِلُهم.

وجعلوا بناتٍ لله مع اعتقادهم أن البناتِ أحطُّ قدراً من الذكور؛ فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.

وإبطالُ عبادةِ كلِّ ما دون الله على تفاوتِ درجاتِ المعبودين في الشرف؛ فإنهم سواءٌ في عدم الإلهية للألوهية ولِبُنُوَّة الله ـ تعالى ـ.

وعرَّج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفَّه تخييلاتِهم وتُرَّهاتهم.

وذكَّرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذَّرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالةَ إبراهيمَ وموسى وعيسى ـعليهم السلام ـ.

وخصَّ إبراهيمَ بأنه جعل كلمةَ التوحيدِ باقيةً في جَمْعٍ مِنْ عَقِبِه، وتوعَّد المشركين، وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارُهم وقُوعَهُ من مُغَذِّيات كُفْرِهم وإعراضهم؛ لاعتقادهم أنهم في مَأْمَنٍ بعد الموت.

وقد رُتِّبت هذه الأغراضُ وتفاريعُها على نَسْجٍ بديعٍ، وأسلوبٍ رائعٍ في التقديم والتأخير، والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسباتِ التي

اقتضتها البلاغةُ، وتجديدُ نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه.

وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمُثُل والقوارع والترغيب والترهيب شيء عجيب، مع دحْضِ شُبَهِ المعاندين بأفانينِ الإقناعِ بانحطاط مِلَّةِ كُفْرِهم وعَسْفِ مُعْوَجِّ سلوكهم.

وأُدْمِجَ في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير.

وقد جرت آياتُ هذه السورةِ على أسلوبِ نِسْبَةِ الكلامِ إلى الله -تعالى- عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره. ٢٥/١٥٨-١٥٩

٣- وأشار بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إلى ما كان في منطق موسى من الحُبسة والفهاهة كما حكى الله في الآية عن موسى ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ وفي الأخرى ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

وليس مقامُ موسى يومئذ مقامَ خطابةٍ ولا تعليم وتذكير حتى تكون قِلَّةُ الفصاحة نقصاً في عمله، ولكنه مقام استدلال وحجة؛ فيكفي أن يكون قادراً على إبلاغ مراده ولو بصعوبة، وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل كما قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

ولعل فرعون قال ذلك؛ لما يعلم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك من حاله؛ ليذكِّر الناس بأمر قديم، فإن فرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو (منفطاح الثاني) وهو ابن (رعمسيس الثاني) الذي وُلد موسى في أيامه ورُبِّي عنده، وهذا يقتضي أن (منفطاح) كان يعرف موسى ولذلك قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

وأما رسولنا محمد ﷺ فلما أُرسل إلى أمة ذات فصاحة وبلاغة وكانت معجزته القرآن المعجز في بلاغته وفصاحته وكانت صفة الرسول الفصاحة لتكون له المكانة الجليلة في نفوس قومه. ٢٥/٢٣١

٤ـ **والأساورة:** جمع أُسْوار لغة في سِوَار، وأصل الجمع أساوير مخفف بحذف إشباع الكسرة، ثم عوِّض الهاء عن المحذوف كما عوضت في زنادقة جمع زنديق إذ حقه زناديق.

وأما سوار فيجمع على أسورة.

والسوار: حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ، وهو عند معظم الأمم من حلية النساء الحرائر ولذلك جاء في المثل: «لو ذاتُ سوار لطمتني» أي لو حرة لطمتني، قاله أحد الأسرى لطمته أمةٌ لقوم هو أسيرهم.

وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبس الملك سوارين.

وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين، وآخرين على العضدين.

فلما تخيّل فرعون أن رتبة الرسالة مثل المُلك حسب افتقادها هو من شعار الملوك عندهم أمارة على انتفاء الرسالة. ٢٥/٢٣٢

سورة الدخان

١ ـ سميت هذه السورة (حم الدخان).

روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضاً: عن أبي هريرة عن النبيﷺ : «**من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة**» الحديث.

واللفظان بمنزلة اسم واحد؛ لأن كلمة (حم) غير خاصة بهذه السورة فلا تُعد علماً لها، ولذلك لم يعدها صاحب الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم.

وسميت في المصاحف وفي كتب السنة (سورة الدخان).

ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ الدخان فيها المراد به آية من آيات الله أيّد الله بها رسولهﷺ فلذلك سميت به اهتماماً بشأنه، وإن كان لفظ (الدخان) بمعنى آخر قد وقع في سورة (حم تنزيل) في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور القرآن عن رواية جابر بن زيد التي اعتمدها الجعبري وصاحب الإتقان على أن وجه التسمية لا يوجبها.

وهي مكية كلها في قول الجمهور.

قال ابن عطية: هي مكية لا أحفظ خلافاً في شيء منها.

ووقع في الكشاف استثناء قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ولم يعزه إلى قائل، ومِثله القرطبي، وذكره الكواشي قولاً وما عزاه إلى معيّن.

وأحسب أنه قول نشأ عما فهمه القائل، وسنبينه في موضعه.

وهي السورة الثالثة والستون في عد نزول السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية في مكانها هذا.

وعدت آيها ستاً وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام، وعدت عند أهل البصرة سبعاً وخمسين، وعند أهل الكوفة تسعاً وخمسين. ٢٥/٢٧٥ـ٢٧٦

٢ـ أغراضها: أشبهَ افتتاحُ هذه السورةِ فاتحةَ سورةِ الزخرفِ من التنويه بشأن القرآنِ وشرفِهِ، وشرفِ وقتِ ابتداءِ نزولِه؛ ليكون ذلك مُؤْذِناً أنه من عند الله، ودالاً على رسالة محمدﷺ ولِيُتخَلَّصَ منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاءُ واللمزُ عن التدبر؛ فَحَقَّ عليهم دعاءُ الرسول بعذاب الجوع؛ إيقاظاً لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع فيهم الدلائلُ العقلية؛ ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسولهﷺ دليل على أنه أرسله؛ لِيُبَلِّغَ عنه مرادَه.

فأنذرهم بعذاب يَحُلُّ بهم علاوةً على ما دعا به الرسولﷺ تأييداً من الله له بما هو زائدٌ على مطلبه.

وضَرَبَ لهم مثلاً بأمم أمثالهم عصوا رُسُلَ اللهِ إليهم؛ فَحَلَّ بهم من العقاب ما من شأنه[1] أن يكون عظةً لهؤلاء؛ تفصيلاً بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تُبَّعٍ، وإجمالاً وتعميماً بالذين مِنْ قبل هؤلاء.

وإذ كان إنكارُ البعثِ وإحالتُه من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله ـتعالى ـ انْتَقَلَ الكلامُ إلى إثباته، والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين؛ ترهيباً وترغيباً.

وأُدْمِجَ فيها فضلُ الليلةِ التي أُنزل فيها القرآنُ، أي ابْتُدِئَ إنزالُه وهي ليلة القدر.

---

١ ـ في الأصل: من شأنه بدون: ما، ولعل الصواب ما أُثبت.

وأُدْمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسباتُ من دلائل الوحدانية، وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث.

وخُتِمَتْ بالشد على قلب الرسولﷺ بانتظار النصر، وانتظار الكافرين القهر. ٢٧٦/٢٥

٣ـ **فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن** بركة قدَّرها الله لها قبل نزول القرآن؛ ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها مُلابساً لوقت مبارك؛ فيزداد بذلك فضلاً وشرفاً.

وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها. ٢٧٨/٢٥

٤ـ والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنه كان في ليلة القدر.

ولما تضافرت الأخبار أن النبيﷺ قال في ليلة القدر: «**اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى في خامسة تبقى في سابعة تبقى في تاسعة تبقى**».

فالذي نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان، إلا إذا حُمل قول النبيﷺ: «**اطلبوها في العشر الأواخر**» على خصوص الليلة من ذلك العام.

وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث: «**اطلبوها في العشر الأواخر**» على كل احتمال. ٢٧٨/٢٥ـ٢٧٩

سورة الجاثية

١ ـ سميت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس، وكتب التفسير وفي صحيح البخاري (سورة الجاثية) معرفاً باللام.

وتسمى (حم الجاثية) لوقوع لفظ ﴿ جَاثِيَةً ﴾ فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن، واقتران لفظ (الجاثية) بلام التعريف في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خَلِيّ عن لام التعريف لقصد تحسين الإضافة، والتقدير: سورة هذه الكلمة، أي السورة التي تذكر فيها هذه الكلمة، وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه.

وذلك تسمية حم غافر، وحم الزخرف.

وتسمى (سورة شريعة) لوقوع لفظ ﴿ شَرِيعَةٍ ﴾ فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتسمى (سورة الدهر) لوقوع ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

وهي مكية قال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن ابن عباس وقتادة استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ إلى ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ نزلت بالمدينة.

وعن ابن عباس أنها نزلت عن عمر بن الخطاب شتمه رجل من المشركين بمكة فأراد أن يبطش به فنزلت.

وهي السورة الرابعة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت

بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف.

وعدد آيها في عد المدينة ومكة والشام والبصرة ست وثلاثون، وفي عد الكوفة سبع وثلاثون لاختلافهم في عد لفظ (حم) آية مستقلة. ٢٥/٣٢٣-٣٢٤

٢- **أغراضها**: الابتداءُ بالتحدي بإعجاز القرآن، وأنه جاء بالحق؛ توطئةً لما سيذكر بأنه حقٌّ كما اقتضاه قوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾.

وإثباتُ انفرادِ الله -تعالى- بالإلهية بدلائلِ ما في السماوات والأرض من آثار خَلْقِه وقدرتِه في جواهر الموجودات وأعراضها، وإدماجُ ما فيها مع ذلك مِنْ نِعَمٍ يَحُقُّ على الناس شُكْرُها لا كفرُها.

ووعيدُ الذين كَذبوا على الله، والتزموا الآثامَ بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن، والاستهزاء بها.

والتنديدُ على المشركين؛ إذ اتخذوا آلهةً على حسب أهوائهم، وإذ جحدوا البعث، وتهديدُهم بالخسران يومَ البعثِ، ووصفُ أهوالِ ذلك، وما أُعِدَّ فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين.

ودعاءُ المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم، والوعدُ بأن اللهَ سيخزي المشركين.

ووصفُ بعضِ أحوالِ يومِ الجزاء.

ونُظِّر الذين أَهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها، وخالفوا على رسولهم ﷺ فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه؛ فما ظنك بمن خالف آياتِ اللهِ من أول وَهْلَةٍ؛ تحذيراً لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم، وذلك تحذيرٌ بليغ.

وذلك تثبيت للرسولﷺ بأن شَأْنَ شَرْعِهِ مع قومه كشأن شريعة موسى لا تَسْلَمُ من مخالف، وأن ذلك لا يقدحُ فيها، ولا في الذي جاء بها، وأن لا يعبأ بالمعاندين، ولا بكثرتهم؛ إذ لا وزن لهم عند الله. ٣٢٤/٢٥

٣ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغاً عظيماً؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسولﷺ متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها، والدعوة إليها.

ولذلك فرَّع عليه أمرَه باتباعها بقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي دُم على اتباعها؛ فالأمر لطلب الدوام مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وبين قوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر. ٣٤٨/٢٥